الفخر
فى شعر أبى الطيب

للأستاذ طه الراوى
عضو المجمع العلمى العربى

نريد أن نتحدث عن أبى الطيب ، ولكن هل غادر المتحدثون عنه من متردم ؟ ماذا نقول فى شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس من متقدمين ومتأخرين ، بله المعاصرين ، من بين مادح وقادح ، وناقد وشارح ، حتى كان من ازدحام أولئك الأعلام حول هذا المنهل أن ازدهرت خزانة الأدب بشرات الأسفار ، فهل من جديد نقوله ؟ هذا ما جال فى خاطرى عند ما تلقيت دعوة لجنة المهرجان المحترمة

على أنه لابد من القول ، فلا بد من اختيار ناحية من نواحى شاعرنا والتحدث عنها ، فان وفقت إلى جديد فهو الهدف ، وإلا فقد أبلغت عذراً . لا خلاف فى أن أبرز نواحى أبى الطيب وأبرعها جمالاً وأروعها جلالاً هى العظمة ؛ وقد صورها لنا بشعره أبرع تصوير وأروعه ، وقد فخر فى ذلك ما شاء وشاءت عبقريته ، فليكن موضوعنا إذن : (الفخر فى شعر أبى الطيب)

والفخر فى شعر هذا الناقم الثائر جذوة من نفسه ونفحة من روحه ، بل هو ترجمان طموحه ، أو قل هو ذوب نفسه الكبيرة ، تارة يتألف قولاً وطوراً يتمثل فعلاً

ومن ثم جاء هذا الضرب من شعر شاعرنا مطبوعاً بطابعه الخاص ، بعيداً من التكلف والتعسف ، بريئاً من كثير من العاهات التى علقت بغيره من شعر أبى الطيب ، ولا يدانيه فى ذلك إلا الوصف ، ووصف المعارك خاصة ، وكل ما يتصل بالرجولة والبطولة

ويرى المخلفون الرعاديد أن الفخر ضرب من ضروب العجرفة الفارغة والجبروت الكاذب ، وتلك خديعة طباعهم الخاملة ، وسجية نفوسهم الخانعة المستخذية التى تستمرىء الهون ، وتقنع بالدون . أما النفوس المجبولة من طينة الشرف فتأبى إلا مساماة النجوم ومغالبة الخصوم ، ذلك لأن الله برأها حرة فلا تلين للذلة ، ولا تدين بالقلة ، والعربى مجبول على الأباء والأنفة ، مفطور على العزة وسمو الهمة والطموح إلى معالى الأمور

وبهذه السجايا أحرز ما أحرز فى ماضى الزمان من عظمة الشأن وبسطة السلطان

وقد افتخر سيد ولد آدم عليه السلام فى غير ما موقف ، وهو القائل فى بعض مواقفه الحربية :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وهذا داهية بنى حرب يقول : وضعت رجلى فى الركاب يوم صفين للهرب ، فتذكرت قول ابن الاطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى   وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى

فانثنيت عما أنا فى سبيله

ولعمرى ما أُخذنا فى عصورنا المتأخرة إلا من ناحية تلك الفلسفة السقيمة المقيمة ، فلسفة الاستكانة والتماوت التى تسربت إلينا من بثوق المغلوبين على أمرهم ، المفجوعين بحريتهم ، المصابين بعزتهم وأنفتهم ؛ ثم جاء الطامعون بنا فنفخوا فى نارها ، وضاعفوا من أضرارها ، إلى أن أصبحنا نخاف من كل شىء حتى من أنفسنا ، ونرى يومنا أسوأ من أمسنا

فاذا أردنا أن نعيد سيرة أولينا جذعة ، فعلينا أن نغذى نفوس ناشئتنا بكل ما من شأنه أن يغرس فيها الشمم والطموح الى معالى الأمور والترفع عن دناياها ، وإرخاص الحياة فى سبيل العز ، والاعتقاد بأن الحياة بغير الحرية ضرب من ضروب الموت الخفى ؛ والشعر الفاخر أو الفخر الشاعر من أجدى الأغذية النفسية وأنجع الأدوية الروحية

ودوحة الفخر فى شعر أبى الطيب كثيرة الأفنان ، باسقة الأغصان ؛ وموقفنا هذا المحدود بالدقائق أضيق من أن يتسع للاحاطة بجميع أطراف هذا الموضوع فلا بد من الاقتصار والاختصار . وليكن اقتصارنا على غصنين هما أكثر تلك الأغصان أزهاراً وأينعها ثماراً ، وهما إمامته الأدبية ، وأمنيته السياسية

نشأ أبو الطيب صباً بالمعالى متيماً بها ، لا يفارقه طيفها تُسرى أمامه وتأويباً على أثره . وتمثلت له أمنيته بالسيادة والملك فكان يبغى أن يقهر العتاة من جبابرة عصره ، ويديل للمزبه من أولئك

الوالى الذين تسنموا العروش من طريق الختل والغدر

وإنما الناس بالملوك ولا تفلح عرب ملوكها عجم

بكل منصلت ما زال منتظرى حتى أدلت له من دولة الخدم

أعلك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم

نبتت هذه الأمنية فى رأس أبى الطيب من يوم عرف نفسه، وملكت عليه مشاعره واستبدت براحته، ولم تزل تطوح به من بلد إلى بلد حتى لفظ نفسه وسكن رمسه

وكان لها فاتحةُ شعره وخاتمته. قيل له وهو فى المكتب ما أحسن هذه الوفرة! فقال:

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة يعلُها من كل وافى السبال

وقال من قصيدة هى آخر ما نظم، وقد وجدت فى رحله بعد قتله:

سدِكت بصرف الدهر طفلاً ويافعاً

فأفنيته عزماً ولم يُفنني صبرا

أريد من الأيام ما لا يريده سواى ولا يجرى بخاطره فكرا

وأسألها ما أستحق قضاءه وما أنا ممن رام حاجته قسرا

انظر كيف تبادرت هذه الأمنية فى نفسه حتى أصبح يراها من حقه الذى لا ينبغى أن يغالب عليه

ولى همة من رأى همتها النوى فتركبنى فى عزمها الركب الوعرا

تروق بنى الدنيا عجائبها ولى فؤاد بيض الهند لا بيضها مغرى

ومن كان عزمى بين جنبيه حثه

وخيّلَ طولَ الأرض فى عينه شبرا

صحبت ملوك الأرض مغتبطا بهم وفارقتهم ملآن من حنق صدرا

ولما رأيت العبد للحر مالكا أبيت إباء الحر مسترزقاً حرا

إلى أن قال:

فان بلغت نفسى المنى فبعزمها وإلا فقد أبلغت فى حرصها عذرا

الملك هدف أبى الطيب، ولكن المسالك اشتبهت عليه؛ فتارة يسلك طريق البراعة فى اليراعة، وطوراً يرى طريق السيف أهدى وأجدى، وحيناً يرى أن المال هو الذى يجمع عليه الرجال، وآناً يرى السبيل أن يتولى عملا لبعض الملوك، ثم يجعله مركزا لحركته ونواة لمملكته

فهو فى هذه السبل إلى أن لقى مصرعه

وقد جرب الثورة الحمراء فى مقتبل عمره فأخفق، وعاد ممتطياً صهوة البيان، يغالب الأقران ويصارع أحداث الزمان، وتغزوه الرزايا من كل مكان، وهو معتصم بالصبر ثابت العزم

كان شاعرنا قوى الثقة بمكانته البيانية منذ حداثته، يقول فى صباه:

إن أكن مُعْجباً فعُجْب عجيب

لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود

وقال:

أنا صخرة الوادى إذا ما زوحمت وإذا نطقت فأنتى الجوزاء

وإذا خفيت على الغبى فعاذر ألاّ ترانى مقلة عمياء

ولما تكاثر حساده واحتشدوا له وأسمعوه من الهجاء قال:

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمل الداء العضالا

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وقال لعلى بن أحمد الأنطاكى:

دعانى اليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلام النظم والناثل النثر

وما قلت من شعر تكاد بيوته

إذا كتبت يبيض من نورها الحبر

كأن المعانى فى فصاحة لفظها نجوم الثريا أو خلائق الغر

ويقول للقاضى أبى الفضل الأنطاكى:

لا تحسر الفصحاء تنشد ههنا بيتاً ولكنى الهزبر الباسل

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولاسمعت بسحرى بابل

ويقول لأبى العشائر:

شاعر المجد خدنه شاعر اللف ظ كلانا رب المعانى الدقاق

ونظر إلى من حوله من شعراء سيف الدولة وفيهم الصفوة من سحرة ذلك العصر فلم يعتبرهم شيئاً مذكورا:

خليلى إنى لا أرى غير شاعر فَلِمْ منهم الدعوى ومنى القصائد

ويقول عن سيف الدولة:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبارى ثم قال له الحق

وقد لحظ فى شعره عناصر الخلود فقال:

وما الدهر إلا من رواة قصائدى

إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

على أن اعتداد شاعرنا بإمامته في البيان لم يشغل باله كثيراً، إذ كان يقينه بهذه الأمامة أقوى من أن يحتاج إلى الجدال والنضال إلا حين يبخسه حقه بعض الشعراء، أو يغفل عنه بعض الأمراء، فينبه هذا ويجيب ذاك؛ وإنما الشغل الشاغل لذهنه تلك الأمنية التي عقد بها فكره وحبس عليها جهده، ومارس منها معشوقة خلابة جذابة، ولكنها لا تلين بحال، ولا تدين بوصال؛ فأكثر من التغني بها وهي لاهية عنه بالسود التنابيل:

سيصحب النصل مني مثل مضربه
وينجلي خبري عن صمة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

* * *

إلى أي حين أنت في زي محرم وحتى متى في شقوة وإلى كم
وإلا تمت تحت السيوف مكرماً تمت وتلاق الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد
يرى القتل في الهيجا جنى النحل في الفم

أعجب الأدباء بامرئ القيس حيث يقرن في شعره بين معاطاة الكئوس ومشهد الحرب الضروس؛ قالوا: وهذا غاية في الشجاعة. أما شاعرنا فقد خلف امرأ القيس وراءه، وقصر كل لذته على اصطدام الصفوف بالصفوف ومقارعة الحتوف بالحتوف. طلب إليه بعض أصحابه أن يشرب معه فقال:

ألذ من المدام الخندريس وأحلى من معاطاة الكئوس
معاطاة الصفائح والعوالي وإقحامي خميساً في خميس
فموتي في الوغى عيشي لأني رأيت العيش في أرب النفوس

وقال في مثلها:

لأحبتي أن يملأوا بالصافيات الأكؤبا
وعليهم أن يبذلوا وعلي ألا أشربا
حتى تكون الباترا ت المسمعات فأشربا

وقال:

ألا حبذا قوم نداماهم القنا يسقونها رياً وساقيهم العزم

وكثيراً ما كان يفسح لهذا المطمح مجالاً في صدور قصائده التي يمدح بها أمراء زمانه، وبذلك يتنكب نهج الشعراء في تصدير قصائدهم بالغزل ويتغزل هو بقدود الرماح وبيض الصفاح، ويتغنى بالجلاد والكفاح، فكأنه يقول لهم: لكم ليلاكم ولي ليلاي ولكل أن يتغزل بحبيبته. قال في صدر قصيدة يمدح بها علي بن أحمد الانطاكي:

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

وفي صدر أخرى يمدح بها علي بن أحمد المري:

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام
أقراراً ألذ فوق شرار ومراماً أبغي وظلمي يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقنا والشام

ولم يفارقه هواه في ليلاه بعد أن حل بكنف سيف الدولة ووجد فيه ذلك الملك الهمام، مل‍ء العين والسمع والفؤاد، فهو ذا يقول:

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة تستجفل الضرغام عن أشباله
تلقى الوجوه بها الوجوه وبينها ضرب يجول الموت في أجواله

أما في مصر فقد صانع الأسود أولا ثم لما أعياه أمره نفث من سمه ما شاء، وفارقه على تلك الحال الملومة، حتى ضمته الكوفة الى صدرها، وهناك أملى قصيدتيه المشهورتين المقصورة والميمية، وأودعهما ذلك اللهيب المتأجج، فمن قوله في الثانية:

ما زلت أضحك إبلي كلما نظرت الى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فانما نحن للأسياف كالخدم

وهنا كرر إيمانه بهذه الحقيقة:

أسمعتني ودوائي ما أمرت به فان غفلت فدائي قلة الفهم

وهذا الايمان لم يمنع شاعرنا من ارتياد عضد الدولة وامتداحه؛ فهل نتهمه بقلة الفهم على حد تعبيره هو؟ لا. والذي يلوح لنا من منطق الحوادث أن شاعرنا رأى يده فارغة وأن الأقدام على الثورة يتطلب رجالاً، ولا رجال في مثل ظروف

شاعرنا إلا بالمـال ، فانطلق يلتمسه فى مواطنه ؛ ويظهر أنه جاء بما فيه البلغة ، ولـكن النيـة حالت دون الأمنية ، ولنا على هذا كلام يضيق الوقت عن بسطه

والمـال فى نظر أبى الطيب إنما هو وسـيلة إلى غيره ، وقد اتهمه بعض حساده بالشح وفى طليعتهم أبو بكر الخوارزمى ذلك الشتامة الذى لم يسلم من أوضار لسانه إلا القليل

وحالة شاعرنا تنطق ببراءته من هـذه التهمة . أما أقواله فبرهان آخر :

وما حاجتى فى مسجد أستفيده ولـكنها فى مفخر استجده

غـثاثة عيشى أن تغث كرامتى وليس بغث أن تغث المآكل

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

بقى علينا أن نسأل من أين تسربت هذه الفكرة إلى رأس أبى الطيب ؟ والجواب أن لنفسه المجبولة على التعالى أقوى نصيب فى تكوين هذه الفكرة وتغذيتها وتنميتها ، فقد خلق شاعرنا شجاع القلب ، أبى النفس ، حمى الأنف ، خصيب العقل ، ملتهب الفطنة ، فياض العاطفة ، صباً بمعالى الأمور زاهداً فى سفسافها

والعامل الآخر فى هذه الفكرة الأوضاع السياسية فى البلاد الاسلامية يومئذ ، فقد كانت هذه البلاد مسرحاً للفتن والدسائس ، ومهباً مقسماً بين رجال الثورات وأرباب الدعوات وأهل الختل والغدر ، وقد ساهم فى ذلك حتى العبيد ، وحسبك بكافور على ذلك مثالاً فقد صار :

يدبر الأمر من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب

فما بالك بفتى يعربى توفرت فيه كل أسباب السيادة ومزايا الرياسة ؟

ولـكن ما الحيلة وقد كبا به جده دون الغاية ، وحالت المنية دون الأمنية ؟ ولا ضير فقد سمى وليس عليه إدراك النجاح

على أن المجد الذى خانه فى ميدان السياسة ، حلق به فى سماء المجد الأدبى فأطلعه فيها شمساً تفيض بالنور على مر الدهور ؛ وإن أخطأته امارته السياسية فقد اعتزت به إمارته الأدبيـة ، وتلك فانية لأنها تدور حول الحطام ، أما هذه فباقية على مر الأيام

طه الراوى

المرأة المســـلمة

فى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)

بقلم الآنسة نعيمة المغربى

تطلع علينا مكتبة الأديب السيد حسام الدين القدسى بالقاهرة من حين الى آخر — بطائفـة صالحة من الـكتب العربية القديمة ، فينبش كنوزها الدفينة ، ويعرض جواهرها على أنظار عشاق الأدب ، وهواة لغة العرب ، وهى خدمة موفقة يضطلع بها الأديب المذكور ، ويقصد من ورائها خدمة ثقافتنا العربية القديمة وأبنائها الذين يقدرون حسن اختياره وحميد مجهوده . من ذلك أنه باشر طبع كتاب (الضوء اللامع) فى تراجم رجال القرن التاسع تأليف المحدث الـكبير والمؤرخ النقادة شمس الدين السخاوى ؛ وهذا الأثر من أعظم آثار السخاوى وأكثرها شهرة ، يقع فى عـدة مجلدات ضخمة ، ظهر منها الى اليوم اثنا عشر جزءا . وقد خص المؤلف الجزء الثانى عشر من كتابه بتراجم نساء القرن التاسع . وكثيراً ما اقتصر على اسم المترجمة وتاريخ ولادتها ووفاتها والاجازة التى تلقتها من شيوخها إن كان ثمة إجازة . ومع هذا فالباحث يستطيع أن يستخرج من (الضوء) فوائد جمة ذات قيمة تزداد وضوحا كلما أوغل المطالع فى مطالعته وازداد للمؤلف صحبة فى تتبع أخبار من ترجم من نساء عصره ، فهو يقع من وقت الى آخر على حوادث طريفة وفوائد ممتعة من أحوال نساء ذلك العهد

والـكتاب يشتمل على ترجمة ألف امرأة ونيف ؛ وهو عدد كبير لا يسمه كتاب واحـد لو أن المؤلف توخى الاسهاب والاطالة ، ولـكنه لجأ الى الايجاز واهمال التفاصيل كما مر . ولا أعرف السبب الذى حدا بالمؤلف رحمه الله الى ذكر بعض نساء عصره ما دام انه لم يظفر من أخبار حياتهن بما يستحق الذكر والتدوين . وكنت أرجع أحياناً الى كتاب (شذرات الذهب) بغية زيادة الاستيثاق من ترجمة بعض من ترجم المؤلف لهن ، فأجد صاحب (الشذرات) أيضاً قد نحا منحى (صاحب الضوء) فى الاختصار والاقتصار على الاسم والوفاة . ولعل عذر